نظرات في بعض الملامح العامة *

للحياة الروحية والفكرية في المغرب

بقلم : الدكتور حبيب القيسي
الاستاذ المساعد في قسم اللغة العربية

لم يعد من المنطق في شيء ان نضع خارطة اقليمية تحدد الثقافة الفكرية والروحية للامة العربية ، موضوعا وتاريخا ، فقد غدا واضحا جدا أن عملية لرصد ثقافة أمة من الامم لتحديد آفاقها ومسح أبعادها عبر مسيرتها التاريخية لا يمكن أن تخضع لمبدأ التجزئة • ويصدق ذلك تماما على امة العرب ، وثقافتها ، تلك الثقافة التي كانت وما زالت ، وستبقى ، القاعدة التي يرتكز عليها وجود هذه الامة ، وعليها يتحرك تاريخه ، وفيه ترتسم قسماته وملامحه(١) •

ان مساحات واسعة من التاريخ الثقافي للامة العربية لما يتهيأ لها أن تحظى بعناية ذات قيمة من جانبنا ـ أبناء هذه الامة ـ ونرانا في المناسبات ـ وهي كثيرة ـ نتحسس جوانب النقص هذه فنشير اليها ـ مسهبين أو موجزين ـ فنتنادى ونتواصى ، بكل خير فينعقد الاجماع ، ويبلغ الحماس ذروته ، ولكن ، كما يظهر ، يتلاشى كل شيء ، بانتهاء المناسبة • وانه لمن غير المجدي ، بل ليس علميا أن ننشغل بالاجتهاد في تحديد جهة معينة ، ونلقي عليها

(*) محاضرة القيت في المركز العام لجمعية المؤلفين والكتّاب العراقيين في بغداد بتاريخ ١٩٧٢/١/٧ •

(١) انظر : ساطع الحصري ، دفاع عن العروبة ـ نشر دار العلم للملايين ، بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٥٦ المقدمة (ص ١ـ١٢) •

مسؤولية هذا التقصير ، بقدر ما ينبغى علينا ـ نحن المتخصصين بمختلف فروع المعرفة ـ من التحرك ـ أو البدء فى التحرك ، لتغطية هذا النقص فى موقفنا نحو تراثنا الثقافى تأريخاً ، ونقدا ، وتعريفا ، وتخفيفا من عقدة الذنب التى لا اغالى اذا ما قلت انها اصبحت امرا نتحسسه بمرارة ونحن نرى هذا السيل المتصل من الابحاث والدراسات التى يقوم بها باحثون من غير هذه الامة ، مستشرقين ومستعربين عن تاريخنا الفكرى والحضارى • ولسنا الآن بصدد تقويم هذه الدراسات والابحاث ، أو التعرض للمناهج أتبعت فيها ، لان لهذا الامر مجالا آخر •

ان بحثنا فى هذا الموضوع يؤكد أمرين :

الاول : هو الانسجام مع مقتضى الشعور العربى العام بضرورة التصدى لمقومات الحضارة الفكرية لامتنا العربية ، وتسليط الضوء على تضاعيف التاريخ الحافل لهذه الامة فى هذا المضمار ، محاولة لتقويم الخطى التى كانت لها على درب الانسانية الطويل • ولا أظن ان الحرص على ذلك يقتضى تبريرا يدفع تهمة ، أو يرد تقوّلا ، فقد اصبح من المسلم به أن اقامة مثل هذه الدراسات الانسانية مسؤولية كل الباحثين ، شرقيين كانوا أو غربيين ، حيث ان كل ما ينجز فى هذه المجالات انما هو تراث انسانى عام ، وليس خاصا بأمة من الامم ، وحرى بنا ـ نحن العرب ـ أن يكون فى مقدمة اهتماماتنا دراسة تراثنا الفكري في أقطار العروبة كافة • ويبدو لي أن حديثنا ـ نحن المشارقة ـ عن اخواننا المغاربة أمر هو من الاهمية بمكان ، انطلاقا من حقيقة أن العربى فى المشرق أريد له ان يكون عارفا للاقل من القليل عن أخيه فى المغرب ، ولا أبالغ اذا ما قلت ان ذلك يصدق فى الوقت الراهن ، كما كان يقال فيما مضى من زمان •

والامر الثانى هو التأكيد على ضرورة التواصل الفكرى بين جناحى العروبة ، تلك الضرورة التى تحتمها المرحلة التاريخية التى تمر بها أمتنا

العربية ، تركيزا على وحدة النضال العربى ضد معوقات التشكل الجديد لامتنا فى خضم الاحداث الخطيرة التى اصبحت اعظم التحديات لوجودها فى الوقت الراهن • وان مثل هذه الدراسات يبلور مقومات حقيقية للضمير العربى ، ويشكل منطلقا صحيحا يفرض نفسه من خلال الممارسات الجماهيرية على صعيد الوطن العربى الواحد ، كرافد من روافد الثورة العربية الواحدة •

حديثنا فى هذا الموضوع يعكس اطيافا تاريخية شتى عبر نفحات ، ولفحات نحسها بين سطور بعض المراجع ، كما نتذوقها ونلمسها فى معطيات هذه الارض الطيبة ، بأبعادها المادية والروحية ••• ولا ابالغ اذا ما قلت ان من يتصل بهذه الارض يتذوق لهوائها طعما ، كما يحس لاجوائها نكهة •

وتناول هذا الموضوع فى محاضرة واحدة أمر فيه من الصعوبة الشىء الكثير ، ومصدر تلك الصعوبة هو ان لهذا الموضوع جذورا ضاربة فى اعماق التاريخ ، ومعالجته لابد من ان تعتمد المسح الشامل لابعاده الدقيقة ، المتشعبة ، التي بدأت حركة تشكلت سطورها الاولى منذ آلاف السنين ، متفاعلة مع الظروف الزمانية والمكانية بتدافع الموجات البشرية الى هذه الارض قادمة اليها من شرقنا العربى تحمل معها النور والخير ، والحياة •

الباحث فى هذا المجال يتعين عليه ان يبذل قصارى جهده فى معرفة السبل الموصلة الى تلك الجذور ، فيتلمس تشعباتها فى اعماق التربة الفكرية فى تلك الارض ، متتبعا مختلف المظاهر للارتقاء الفكرى والروحى مستقرئا ومستنتجا ، محللا للظواهر ، حتى تكتمل الصورة الواضحة للواقع التاريخى لهذا الامتداد البشرى لامة العرب فكرا وروحا • لذلك لا أرى أن محاضرة واحدة يمكن لها ان تتسع لهذا كله • ولكن ما لايدرك كله لا يترك جله ، كما يقال • ومحاولتنا اذن سوف لا تتعدى كونها بسطا للخطوط العريضة للجانب الروحى والفكرى فى حياة المغرب •

الجانب الروحي :

لا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الاتجاه الروحى فى هذا القطر كـان ، ولا يزال ، يمثل صفحة ذات اهمية خاصة فى تاريخه العام ، فالتصوف فى المغرب قد اتخذ لـه سبيلا واضحاً الى جميع مرافق الحياة ، وأمكن له أن يستقطب الاهتمامات الفكرية فى الوسط الاجتماعى ، ينعكس ذلك فـى حركة التأليف فى مختلف صنوف المعرفة ، الفقهية والتاريخية ، وحتى الجغرافية حيث جاءت كل هذه حافلة بالصوفيات ، وهذا ما لم نجد لـه مثيلا فى المشرق العربى على الرغم من أن حركة التصوف فى المغرب كانت قد تفاعلت بقوة مع التصوف المشرقى باعتبارها جانبا حيا من جوانب التصوف كظاهرة عامة شملت الدين الاسلامى بمختلف امصاره ، واقطاره .

ان اطلالة عابرة على ما بين ايدينا من مصادر التاريخ المغربى تكشف لنا خطورة الدور الذى كان يلعبه التصوف فى ميدان السياسة ، فالسلطة الروحية المتمثلة فى بعض اشخاص الصوفية انسحبت على مجموع طبقات الشعب بمستوى ملكت معه فى يدها زمام المبادرة فى صوغ قوانين العرف السياسى والادارى فى هذا البلد ، مما اضطر بعض العائلات المالكـة الى ممالأة الصوفية للحفاظ على عرشها ، كمـا تهيأ لبعض آخـر من الاسـر المغربية أن تصل الى سدة الحكم بوساطة علاقاتها وروابطها مع الصوفيـة بل كانت هناك حركات صوفية كالحركة الدلائية استغلت نفوذها الروحى فاحتفظت بمقاليد السلطة السياسية لنفسها(٢) .

لقد كان للعزلة القاسية التى ضربت على المغرب لعوامل تاريخية شتى ، الأثر الكبير في خلق نظام اجتماعي خاص كان وسطا صالحا لنمـو بعض

---

(٢) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القـرن العشـرين ، ترجمة ، د . نقولا زيادة ، الطبعة الاولى ـ الفصل الرابع .
و ـ عبدالعزيز بن عبدالله ـ الفكر الصوفى والانتحالية فى المغرب . مجلة البيّنة الاعداد ٤ ، ٦ ، ٧ لسنة ١٩٦٢ .

التقاليد ذات الصفة الروحية • يذكر انه عرف فى المغرب منذ ايام السلطان مولاى اسماعيل (فى القرن الثامن عشر) نوع من هذه التقاليد ، فحواه : « أن يستدعى السلطان عند اعتلائه العرش كبير الاسرة الوزانية ، ويطلب اليه أن يقوم بالمراسيم التى بدونها لا يعتبر الملك ملكاً شرعياً•وهذه المراسيم تقوم على رمز بسيط ، وهو ان يمسك الرئيس الوزانى بركاب الجواد عندما يعتليه السلطان ، وهذه العادة يرجع اصلها الى عالم السحر الذى طبع الكثير من رمزية البشرية وطقوسها بطابعه »(٣) • ويضيف الاستاذ لاندو الذى اورد ذلك : « ان للمغرب تراثا من السحر يمتد الى وقت قصير »(٤) •

هـذه ظاهرة تضبط تاريخيا بكونها من صميـم الاعـراف والتقاليـد المتوارثة ، ولها جذور تاريخية لا تبعد معها عن ان تكون تقاليد روحية لها منطلق دينى ، الا ان تفسير مثل هذه الظواهر فى ضوء السحر مسألة مبنية على استنتاج متكلف وغير واقعى ، فان تقلد منصب السلطنة ، وهو اخطـر منصب فى الدولة له بعد ان : روحى وسياسى ، وأن وجود بعض التقاليد التى يمارسها رجال يعدون انفسهم سدنة للقيم الدينية ، كالمتصوفة ، مسألة لا يصعب تفسيرها ، فهى ـ فى نظرى ـ لا تعدو أن تكون ضمن مراسـيم تقام فى اهم مناسبة وهى تولى منصب رئاسة الدولة ، ولابد من أن يبـرز فيها الطابع الديني على سبيل التبرك والتيمن • وقد اعتدنا ان نسمع ونقرا الكثير عن مراسيم غريبة وطقوس معقدة تلتزم حرفيا ، وحتى اليوم فـى البلاط الانكليزى ، وأبلطة ملكية اوربية اخرى ، اصبح من المعروف ان لها منطلقا دينيا ، لذا يحافظ عليها بكل دقة •

---

(٣) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ، ترجمة د• نقولا زيادة • الطبعة الاولى ، ص ١٣٦ •

(٤) انظر : المصدر السابق نفسه •

من تاريخ الحركة الصوفية فى المغرب :(٥)

ان ذرى الجبال المغربية الشماء كانت قد شهدت ميلاد حركة التصوف قبل غيرها من مناطق هذا القطر ، وبقى امرها فى الجبال اقوى منه المناطق الحضرية ، عدا بعض المدن الساحلية التى كانت مهبطا للنازحين من صوفية الاندلس مثل سبته ، آسفى ، وسلا ، وكذلك بعض المدن الاخرى التى عرفت تاريخيا بكونها مراكز للاشعاع الفكرى مثل مراكش وفاس(٦) . ويبدو ان السبب فى ذلك هو ملاءمة الاجواء المطبوعة بالبساطة لمثل هذه الحركات الدينية .

ومعلوم لدى كل المغاربة ان الذين وضعوا اللبنات الاولى فى بناء الصوفية فى المغرب كانوا من الاولياء الذين يتمتعون باحترام الناس بسبب سمات التقوى والورع التى كانت تميزهم ، وكان منهم من ضرب اروع الامثلة فى التعبير عن التصوف كحركة روحية اصلاحية ، وبخاصة فى مراحلها الاولى ، حين كانت هذه الحركة قد انطلقت من اساس روحى خالص فيه الكثير من القيم والمثل . وقد كانت الفكرة الصوفية فى بداية امرها قد ظهرت فى افريقيا الشمالية على شكل مزارات مقدسة لاجداث الصحابة والتابعين الذين رافقوا (عقبة بن نافع) فى فتوحاته ، ويذكر أن أول مزارة من هذا النوع قبور هؤلاء الذين استشهدوا فى الفتوحات الاسلامية وقد بنيت بالجص ، واتخذ عليها بعدئذ مسجد عرف بمسجد عقبة . هذا فى القسم الذى يقع ضمن اراضى الجمهورية التونسية حاليا ، (أى فى

---

(٥) ان من أهم المصادر التى تبحث فى تاريخ المغرب الاقصى من الناحية الدينية هو كتاب : « التشوّف الى رجال التصوف » لابي يعقوب بن يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبدالرحمن التادلي المعروف بابن الزيات (٦٢٧ هـ/١٢٢٩-١٢٣٠ م) ، وقد عني بنشره وتصحيحه ادولف فور ، الاستاذ بمعهد الابحاث المغربية ، وطبع فى الرباط سنة ١٩٥٨ .

(٦) انظر : مجلة « البينة » المغربية - العدد الرابع/السنة الاولى (آب ١٩٦٢) ص ٤٩ .

المغرب الادنى) ، أما في المغرب الاقصى ، فيرجح أن يكون الرباط المسمى برباط شاكر أول مزارة عرفت فى هذا القطر ، وشاكر هذا هو الآخر من اصحاب عقبة[٧] .

وقد كان للرباطات الصوفية مهمة مزدوجة ، فهى مجمع لطلبة القرآن وقرائه ، ينقطع اليها المتصوفة لتعليم كتاب الله ، الى جانب مظهر آخر هو التعبدات بالادعية والاذكار .

كان هذا امر حركة التصوف فى بدايتها : انطلاقة روحية خالصة بيد أن بعض زعماء هذه الحركة قد انحرفوا بها عن خطها الروحى الاصيل بعد أن عانت تشبعات سياسية شتى أدت بها الى ان تفقد مضمونها ، فأضلت أهدافها ، كما التوت سبلها ، وكان ذلك فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) ، وتجلى ذلك باستغلال الادعية والاذكار من قبل بعض مدعى التصوف لتضليل العامة ، والوصول الى اهداف مختلفة كلها بعيدة عن الدين ، وبرزت اسماء طوائف من هؤلاء ، كالطائفة اليوسفية التى لقبت بالملعونة ، وطائفة العكاكزة التى وصفت بالكفر والفسوق[٨] .

وكان نتيجة ذلك ان انحدرت هذه الحركة الى حضيض الماديات ، واصبحت مشاعة للعوام ، مما دفع المؤرخ والناقد الاجتماعى ابن خلدون الى ان يتحدث عن خصائص المتصوفة الحقيقيين ، وفرزهم من المدعين ، واضعا بذلك اساسا علميا فى نقد هذه الحركة وتقويمها . وتبعه بعد ذلك فى هذا السبيل الامام الشيخ زروق بكتابه « عدة المريد الصادق من اسباب المقت فى بيان الطريق وذكر حوادث الوقت » ، وقد سلط العلامة الشيخ زروق الضوء على الاسباب التى أدت الى ادعاء التصوف ، وانحداره الى

---

(٧) انظر : المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .

المستوى الذى اشرنا اليه ، وقد اوضح نقطة اساسية فى مبادى التصوف ، هى العصمة ، فأكد عدم عصمة المتصوفة الحقيقيين ، تزكية لهذه الحركة كموقف ديني خالص ينبع من المفهوم الاصيل للدين ، ويقيم جسرا متيناً بينه وبين الحياة .

ولعل من المفيد أن نشير الى بعض الطرق الدينية التى ظهرت فى المغرب ، وكان لها دورها فى دفع حركة التصوف الى مهاوى الضلال ... من هذه الطرق : العيساوية ، نسبة الى مؤسسها محمد بن عيسى فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، فقد كان ابن عيسى قد رسم هذا الطريق ، ولا ينكر انه كان خالص النية ، صحيح الاتجاه الا ان اتباعه ، وكان جلهم من الفقراء ، اندفعوا الى اعتناق هذا الاتجاه شكلا لا روحا ، مما ادى الى ان يكون هذا الاتجاه لديهم عبارة عن ممارسات لاساليب متخلفة كالتى توصف باساليب الدرويش ، مثل الرقص ، واقامة حلقات الالعاب الخارقة ، انتهاء الى فقد الاحساس والخروج عن الطور ، وهذا انحراف بيّن عن الاتجاه الصوفي الاصيل .

من هذه الطرق ايضا تلك المسماة بالدرقاوية التى ظهرت فى القرن الثانى عشر الهجرى (الثامن عشر الميلادى) ، وكانت تتمتع بنفوذ واسع وسلطة قوية على الصعيدين الشعبى والرسمى ، الا انها لم يكن حظها من التردى فى متاهات الضلال باقل من حظ سابقتها .

وهناك طريقة ثالثة تدعى بالتيجانية ، ظهرت فى هذه الفترة نفسها ، كانت قد عرفت بالحرص على الدين تنظيما وغاية ، وهذه الطريقة لا تزال متبعة فى السنيغال ، وبعض اقطار افريقيا المسلمة (المدعوة بالسوداء)[٩] .

---

(٩) انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين (ترجمة نقولا زيادة) الطبعة الاولى ـ ص ١٣٨ .

بين التصوف والسياسة فى المغرب :

اشرنا قبل قليل الى ان السلطة فى المغرب كانت روحية الى جانب كونها زمنية ، أو سياسية • ولما كان التصوف واجهة لحركة روحية منطلقة من قاعدة الدين ، وقد وجدت سبيلها الواسع الى قلوب جماهير الشعب ، فقد كان لملوك المغرب علاقة بهذه الحركة ، اتخذت صفة الايجاب حينا ، وصفة السلب احيانا ، وكل ذلك فى ضوء المبادىء التى طرحتها هذه الطرق الدينية وممارساتها التى كان لها آثارها فى الحياة الاجتماعية العامة ، والسياسية على وجه الخصوص ، باعتبارها نقطة الاحتكاك بين السلطة وهؤلاء • لذا كان من الطبيعى أن يميل ملوك المغرب عموما الى المتصوفة ميلا مبدئياً ، الا انهم لا يترددون في التضييق على أدعياء التصوف ، ومحاربتهم حين تبرز هذه الطائفة فى مجالات الحياة وكأنها تريد فرض نفوذها على الجميع ، واجبار السلطات الحاكمة على السير وفق ما تشاء •

ويرى بعض الباحثين ان سوء العلاقة بين السلاطين المغاربة والمتصوفة كان يعزى الى سببين •

اولهما : تضخم حجم هذه الحركات بحيث اصبح متعذرا أن يفرز الدعي ويشخص الاصيل •

وثانيهما : سعة نفوذ المتصوفة ، واستقطابهم لجماهير الشعب المغربى ، ذلك الشعب الذى كان مدفوعا ـ بحسن النية ـ الى تعضيد الدين ، واعلاء شأنه بالتفافه حول هؤلاء الذين كان من اليسير عليهم آنذاك جذب الآخرين اليهم ، أو حتى فرض هيمنتهم الروحية عليهم • وكان نتيجة ذلك اثارة مخاوف بعض الملوك من مناورات يقوم بها هؤلاء ، تستهدف قلب انظمة الحكم ، أو تهيئة الفرص لمنح هذا الحكم الى هذه العائلة أو حجبه عن تلك • ويشار فى هذا الخصوص الى ما كان لنفوذ الصوفية من الاثر البالغ

فى اعتلاء عائلة السعديين سدة العرش ، كما سيأتى ذكر هذا بعد قليل[١٠] .

يذكر ان ملوك المرينيين فى بادىء أمرهم ، لم يكونوا يخشون الصوفية ونفوذهم ، لان دولتهم كانت قوية الجانب ، لذا كانت علاقتهم بالصوفية يسودها جو من الهدوء ، بيد ان هذه العلاقة قد تكدر صفاؤها حين اعتقل بعض هؤلاء المتصوفة فى مدينة فاس ، وكان ذلك ايذانا بتدهور علاقتهم بملوك بني مرين ، اضافة الى ما ذكر عن بعض امراء المرينيين والوطاسيين من ميل الى التحرر الدينى الذى اتخذ صفة الانحلال احيانا ، مما دفع المتصوفة الى السعى لازالة هؤلاء من الحكم . وبدأت الدعوة لذلك فى منطقة سوس حين قام متصوفاها عبدالله بن عمر المدغرى ، وعبدالعزيز القسطينى بالتمهيد لدولة محمد الشيخ السعدى ، فاندلعت شرارة الثورة السعدية فى سوس وعمت البلاد فالتهمت ما تبقى للوطاسيين من نفوذ .

والغريب فى الامر انه لم تكن لهؤلاء المتصوفة على الرغم من كل ما عملوه علاقة طيبة بالسعديين ، فقد انقلب مؤسس الدولة السعدية محمد الشيخ السعدى على الصوفية ، فامتحن ارباب الزوايا ، ونكل بهم بحجة اتهامهم بحفظ ودائع بني مرين ، وأعاد فرض الضرائب عليهم بعد أن كانوا اعفوا منها قبلا .

ولما ضعف امر السعديين على ايام زيدان استقل المجاهد العياشى الصوفى بالامر فى كثير من نواحى المغرب ، وكانت شوكة الصوفية آنذاك قوية ، فقد بلغت الزاوية الدلائية عنفوانها فتحفظ زيدان فى سياسته تجنبا لاثارة ارباب الزوايا ضده . لكن حدث ما هو متوقع فى مثل هذه الظروف التى تتميز بالضعف السياسى ، فقد قام شغب سياسى كبير ، قاده ضد زيدان احد

---

(١٠) انظر : مجلة « البينة » المغربية ـ العدد السابع (نوفمبر ١٩٦٣) ص ٩٠ـ١٠٢ .

الادعياء وهو احمد بن ابى محلى الذى دعا لنفسه وجمع حوله اعدادا ضخمة من الناس ، وتمكن من ايقاع الهزيمة بوالى السعديين بسجلماسة واحتل درعة ، وطارد السعديين الى مراكش ، فأخرج منها زيدان ، ولكن هـذا الاخير استنجد بأهل سوس فقاموا ضد ابن ابى محلى وقتلوه(١١) .

ولما استقل الملوك العلويون بالنفوذ فى المغرب قضى مولاى رشيد على زاية الدلاء بعد معركة دارت بينه وبين اهلها فى (بطن الرمان) اوائـل المحرم عام ١٠٧٩ هـ .

وقد سخط المولى اسماعيل ، كذلك ، على اهل الزوايا وشدد عليهم ، واستقدم كثيرا منهم لامتحانهم ، ومنهم مولاى التهامى الوزانى . وأمر المولى اسماعيل بسجن احمد ابن عبدالقادر بن محمد بن مبارك التستاونى بفاس عـام ١١٠٤ هـ .

وهكذا نلاحظ ان الصوفية لم تحافظ على علاقات طيبة مـع ملـوك المغرب فترة من الزمن الا وسرعان ما تسوء طيلة هذه الحقب التاريخيـة نتيجة التصادم الذى يحصل بينها وبين الحكام لسبب أو لاخر .

والتاريخ الحديث كذلك يشهد على غيرة ملوك المغرب على الحنيفيـة السمحة وخوفهم من تسرب البدع الى الدين عن طريق اهل الدعاوى من المغرضين ، والذى نعلمه هو أن الملك الراحل محمد الخامس رحمه الله كان قد اصدر ظهائر(*) ملكية يمنع بها هذه الامور منعا باتا(١١) .

وذلك يفسر ، تاريخيا ، الرسالة التى ارسلها الامام ابو بكر الطرطوشى من الاسكندرية الى سلطان المغرب ، التى اشار فيها الى ان اهل المغـرب هم المشار اليهم فى الحديث النبوى : « لا يزال اهل المغرب ظاهرين عـلى الحق حتى تقوم الساعة » لما كانوا يتحلون به فى العصور الاولى من تاريخهم

---

(١١) انظر : المصدر السابق نفسه .

* الظهائر : جمع ظهير ، وهو اصطلاح مغربى يعنى المرسوم .

الاسلامى من تمسك باهداب الدين ، وابتعادهم عن البدع ، تلك التى عصفت اذ ذاك في كيان الشرق الاسلامي عن طريق الطوائف الضالة ونظرياتها الشاذة ، التى نبعت من أرض غير عربية ، وحملتها قلوب غلف ، بيت ، وترصدت ، فأوقعت حينا ، وغلبت احيانا •

الصوفية والوجود الاجنبي في المغرب :

ثمة جانب خطير من جوانب حركة التصوف فى المغرب ينبغى التعرض له ، ولو بشيء من الايجاز ، ذلك هو موقفها من محاولات الغزو الاجنبى فى بدايته ، وتأييده حينما وقع ، وتذبذب هذا الموقف بعد ذلك عبر الظروف التاريخية التى مر بها هذا القطر ، فقد كان موقف المتصوفة وطنيا خالصا فى بادىء الامر حين قاوم محاولات الاحتلال الاجنبى ، ولكنه انقلب الى مهادنة ، فدعوة للاستسلام والتعايش مع الاجانب المحتلين اخيرا •

من الثابت فى تاريخ المغرب ان زوايا الصوفية ، بالاضافة الى كونها مراكز للنشاط الدينى ، كانت نقط الالتقاء الرئيسة للحياة الوطنية والمقاومة ضد محاولات الاسبان والبرتغاليين للسيطرة على المغرب ، وكانت تصف هؤلاء الاجانب بكونهم اعداء كفارا • ولكن هذا الموقف قد شهد تحولا فهادن هؤلاء الغزاة ، واستسلموا لدعاواهم ، بل سعوا الى التحالف معهم على مرور الزمن استجابة لاساليب المستعمرين الذين ادركوا أن اخصر الطرق واجداها لتثبيت وجودهم فى المغرب لابد من ان يمر من هذه الطرق الدينية، واستمالوهم الى جانبهم وفازوا ، فأقبلوا على التعاون مع الادارة الفرنسية وتجلى هذا التعاون بصورة واضحة سنة ١٩٥٣ عندما خلع الملك محمد الخامس عن عرشه ونفى الى خارج البلاد ونصب مكانه احد صنائع الفرنسيين •

ان هذه الحقبة مثلت منعطفا تاريخيا بارزا جدا فى صوغ نمط الحياة التى عاشها المغرب والمستقبل الذى ارهص له بهذا التحول الكبير الذى

شهدته هذه البلاد التى فتحت ابوابها امام الاستمار بعون وتأييد من الداخل، يذكر ان شيوخ الطرق الدينية الذين شكلوا أقوى مرتكزات الاحتلال الاجنبى استغلوا جهل اتباعهم من الناس فاقنعوهم بان واقع الانتصارات الاولى التى حققها الفرنسيون فى المغرب ، لم تكن انتصارات جاءت عن طريق التفوق العسكرى المادى ، بل كانت نتيجة قوى خارقة للطبيعة امتاز بها هذا الشعب الغازى ، وكأن له دورا تاريخياً ، عليه ان يلعبه فى ادارة بعض الشعوب الاخرى الضعيفة لمساعدتها على التمدن والتحضر • وهذا اعظم انتصار يمكن ان يحققه الاستعمار فى البلاد التى يغزوها ••• لذلك لا يعود غريبا علينا فهم ما جنته هذه السياسة الاستعمارية من تعميق جذورها فى شتى مظاهر الحياة المادية والمعنوية لبلد هذه بيئته الاجتماعية وظروفه الفكرية العامة •

لقد كانت المواقف المحزنة التى وقفتها الطرق الدينية حيال الاستعمار لا تنحصر عند حدود ، فقد تورط بعض رجال هذه الطرق فى مواقف سياسية خطيرة ، فان شيخ الدرقاوية «مولاي عبدالرحمن» أوصى بالطاعة والتسليم للسلطات الفرنسية سنة ١٩١٢، كما كان لشيخ الوزانية «مولاى عبدالسلام الوزاني» « سنة ١٨٨٣ تأثير كبير على اتباعه تجلى فى حملهم على ان يقدموا للفرنسيين خدمات جلى ، فأيدو الغزو الفرنسى فى الصحراء الكبرى أولا ، ثم فى المغرب ثانيا ••• وذهبوا الى ابعد من ذلك بقيامهم بالدور الكبير فى استسلام الزعيم الريفى الامير عبدالكريم الخطابى سنة ١٩٢٦ ، فاستحقوا لعنة التاريخ •

اما الكتّانية ، وشيخها عبدالحي الكتّاني ، فقد كانت ، وكان ، خير ما يصوّران كيف تستطيع طريقة دينية أن تتخلى عن غاياتها الدينية فى سبيل التوصل الى مكاسب سياسية ، مادية • والكتاني يعدّ بحق من أبرز الرجالات المغربية التي يمكن وصفها بالولي المحترف • كان عظيم الولاء لفرنسا ،

ومن أكبر الدعاة ضد القضية الوطنية الى درجة انه ساهم سنة ١٩٥٣ مع التهامي الجلاوي (الجلاوي باشا) فى الحملة ضد السلطان محمد الخامس واغتصاب الملك منه ونفيه الى خارج بلاده كما أشرنا قبل قليل .

ولكن ... على الرغم من كل ما قلنا ، تعود الدرقاوية التي سبق ذكرها ، والتي ارتبطت بفرنسا ارتباطا مصيريا وثيقا ، تعود هذه الطريقة لتناقض نفسها فى تأييدها لالمانيا الهتلرية عند نشوب الحرب العالمية الثانية . ويذكر ان شيخ هذه الطريقة كتب بضع رسائل شخصية الى هتلر ، كما ان اتباعه اجتمعوا فى الزوايا المتعددة يشكرون الله لانه ألهم هتلر محاربة الفرنسيين وأمده بعون منه ، ونصر(١٢) .

وعن تذبذب موقف الطرق الدينية من الاستعمار الفرنسي هذا يورد المؤرخ روم لاندو تعليلا هو : « ان شيوخ الطرق يميلون الى المال والنفوذ . وهم يعرفون انهم إن قاوموا الدولة الحامية ، فأنهم لم يحصلوا على أي منهما »(١٣) .

وهذا الرأي لاحد المختصين بشؤون الطرق الدينية فى شمال افريقيا كما يذكر لاندو ، ويضيف اليه : « ومع ذلك لم تعلن الطرق الدينية كلها تكاتفها مع الفرنسيين صراحة ، فأن البعض الآخر منها ، بالرغم من انه كان يقبل الهدايا و « الخدمات » التي كان الفرنسيون يقدمونها الى الطرق ظل يتأرجح فى موقفه ، إما لانه لم يكن واثقاً من أن سيطرتهم على الاعضاء والاتباع لم تكن سيطرة تامة ، أو لانهم كانوا يرون فى هذا التأرجح ما قد يزيد فى قدر المكافأة التي كان الفرنسيون يمنحونها . والقلة التي كانت حقا طرقا دينية صرفا جرّبت أن تظل بمعزل عن المشاكل السياسية »(١٤) .

---

(١٢) و (١٣) : انظر : روم لاندو ـ تاريخ المغرب فى القرن العشرين ص ١٤٠ .

(١٤) المصدر السابق ص ١٤٠ـ١٤١ .

ويعلّل المؤرخ لاندو انسياق هذه الطرق الدينية في سبيل تأييد الاستعمار الفرنسي قائلا : « ان الطرق الدينية كانت تتعلق بأوهى الاسباب لتحول دون فنائها المحقق باعتبارها هيئات تناقض الحياة وتعيش على هامشها • فانعزالها عن التيارات الحديثة ، وجهلها بوجودها ، خلق حولها جواً يسّر لها النمو وأتاح لها فرصة البقاء • وقد كان مجيء الفرنسيين كفيلا بالقضاء حتماً على سلطتها المهلهلة فرأى زعماؤها ان خير ما يمكن أن يعملوه هو ان ينضموا الى القافلة بدل ان تدوسهم الاقدام التي لا تقاوم »[١٥] •

هذه نظرة النقاد الغربيين في تحليل احدى الظواهر الاجتماعية في بلد اسلامي عاش فترة تاريخية فيها الكثير من الملابسات السياسية التي كان الوجود الغربي أساسا في خلقها وتصاعدها • وأكاد أتبين بكل وضوح ان هذه التحليلات فيها من النيل والتجريح والنقد اللاذع للدين الاسلامي اكثر مما فيها من هدوء النظرة العلمية ذات الوضوح والنزاهة الموضوعية •

أكاد لا أفهم كيف يكون الانعزال عن التيارات الحديثة ، والجهل بالوجود ـ لوحدهما ـ دون تواجدهما في مناخ اجتماعي ـ سياسي خاص ، كيف يكونان عاملين رئيسين لخلق الجو الذي ييسر النمو ويتيح البقاء لحركة دينية ـ كما رأى المؤرخ لاندو ـ • الذي يسهل فهمه هو ان الطرق الدينية ، في مراحلها كافة ، وبخاصة في تصاعدها وانحدارها لا تنفك تتجه دوما الى تأصيل تيارها وتعميق مجراها في أوساط المجتمع الذي تعيش فيه توصلا لاهدافها ، مهما كانت تلك الاهداف • وهذا لا يمنع من أن تسقط تلك الطرق في انحرافات ، يسيرة أو حادة عن أهدافها الحقيقية • وقد شهدت فعلا حقب تاريخية مثل هذه الانحرافات ، الاّ أن قيمة هذه الحركة الدينية بمفهومها الصحيح وتأثيرها الاجتماعي ، مع ذلك ، يبقيان أمرا غير

---

(١٥) المصدر السابق ص ١٤٠ـ١٤١ •

قابل للنقاش ، وبخاصة فى مجتمع كالمجتمع المغربي كان ، وما يزال ، عبر تاريخه الطويل متشبثا ، والى حد التزمت أحيانا ، بكل ما يتصل بالدين من بعيد أو قريب ، حتى أصبح ذلك تقليدا طبع هذا الشعب على امتداد تاريخه .

هذه الطرق الدينية ، كما أرى ، لم تفقد تأثيرها الاجتماعي فى كل أدوار التاريخ المغربي ، كما ان أصحابها كانوا ينشدون العون والتأييد لها من كل جانب ، ولا يناقشون كثيرا نوايا من يؤيدهم ، أخذا للامور بالبساطة التي يعتمدونها أساسا فى تعاليمهم كما انهم من جهة ثانية لا يتورعون عن مناصبة من يتصدى لهم العداء ، يرمونه بالضلال والزيغ ، وتنكّب جـــادة الحق سواء كانوا مصيبين فى ذلك أم غير مصيبين .

هذا فى حالة تصورنا للحركة فى خطها الاصيل . اما انحرافها عن أهدافها الدينية الحقة ، فان ذلك يشكل عوامل هي من طبيعة اخرى فى تفسير هذا التأرجح فى موقف الطرقيين تجاه الاستعمار الفرنسي للمغرب .

خلاصة الامر : ان رأي الاستاذ روم لاندو لا يوضح هذه الظاهرة ، ولا يحللها الى عناصرها بصورة علمية . وعندي ان هذه العلاقة بين الاستعمار الفرنسي للمغرب من جهة ، وبين أصحاب الطرق الدينية من جهة اخرى ، بكل ما ظهرت فيه تلك العلاقة من صور ، كانت النتيجة الطبيعية التي خلفتها ظروف المغرب وهو يرزح تحت هذا الاستعمار الذي كان يغذّيه ويقوّي ركائزه ذهنيات فرنسية بارعة من الاوساط الاكاديمية والجامعيـــة كـــانت الجحافل القوية التي مهدت للاستعمار الاستيطاني فى عموم أقطار أفريقيا وبخاصة أقطار المغرب العربي . وهذه العلاقة الجدلية بين الطرق الدينيـــة والاستعمار الفرنسي هي التي يمكن اعتمادها منطلقا لتفسير شمولي لهـــذه الظاهرة .

ان هذه الطرق الدينية وما رافقها من ملابسات سياسية ودينية فى

مجتمع تتحكم فى حياة الغالبية العظمى منه نزعة روحية قوية قد ارهصت لحركة مضادة كرد فعل اتخذ شكل حركة اصلاحية جذرية منطلقة من مدينة فاس ، مؤمنة بأن لا سبيل الى تجديد الحياة الطبيعية الا بوساطة روح جديد يجب أن يولد ، أي ان الخلاص لابد من أن يكون متأتيا عن طريق الروح • وكان من أبرز قادة هذه الحركة الاستاذ علال الفاسي ، وركزت هذه الحركة هجومها على الكتانية وزعيمها عبدالحي الكتاني الذى اتّهم بالتشهير بالاسلام عن طريق تأييد الخرافات التي كان أمرها شائعا بين الناس •

كان لهذه الحركة التصحيحية فى مجال الدين نشاط كبير ، وقد استهدفت الطرق الدينية عموما ، فتبلورت هذه الحركة بحزب الاستقلال ، وقيمه الروحية ، وسميت بالحركة السلفية التي لا زال لها أتباع وأنصار فى الوقت الراهن ، ولها تراث قيّم(١٦) •

وحين أحس زعماء هذه الحركة السلفية بضرورة الانطلاق بالعمل المنظّم ، سمّوا حركتهم بـ (حركة الاصلاح الديني) التي انطلقت من جامعة القرويين ، فقد كان أول داعية لها الشيخ عبدالله السنوسي أحد علماء هذه الجامعة ، وكذلك تلميذه الشيخ محمد بن العربي العلوي ، وأبو شعيب الدكالي ، وقد تمكن هؤلاء من أن يستقطبوا نخبة من الطبقة المثقفة التي كان لها دور كبير فى نشر مبادىء هذه الحركة •

ومما هو جدير بالذكر ان هذه الحركة السلفية كانت أفادت من المدرستين السلفيتين اللتين كانتا معروفتين آنذاك فى بلاد الهند ، وفى مصر والعالم العربي ، فكان لها طابع سلفية الهند ، الاجتماعي ، والطابع السياسي الذي كان يميز السلفية العربية •

---

(١٦) انظر : علال الفاسى ـ « حديث المغرب فى المشرق » طبعة مصر، سنة ١٩٥٦ • وبصورة خاصة محاضرته فى ص ٣ـ٢٩ بعنوان : « الحركة السلفية فى المغرب » والتى القاها فى الجامع الازهر •

وكان أول صدام بين هذه الحركة والسياسة الفرنسية فى المغرب قد حدث بعد استسلام الزعيم الريفي الامير عبدالكريم الخطابي وانتهاء الحرب الريفية ، حين أصبح العداء سافرا بين حركة الاصلاح الديني هذه ، وبين الفرنسيين ، الذين أخذوا يعملون على مقاومة الدين الاسلامي ، وفرضوا المناهج الرسمية لفرنسة المغرب عن طريق تمسيحه بصورة اكراهية وعلنية ، وصدر الظهير البربري فى (١٦) مايس ١٩٣٠ ، فكان ذلك بدء العمل الكفاحي لجنود هذه الحركة وأعوانها مندفعين فى سبيل ذلك دينيا وسياسيا ، فامتد ذلك الكفاح الى الجوانب الادبية والثقافية والاجتماعية التي يتطلبها انشاء كيان خاص بطائفة اسلامية تؤمن بالله ، وبالتقدم ، وبالحرية ، كما أعلنوا(١٧) .

وتعتبر الفترة التاريخية التي قادت هذه الحركة خلالها معارك ضارية ضد الاحتلال الاجنبي ، وقد ناهزت ربع القرن من الزمان ، هي الفترة التي استطاعت هذه الحركة أن تخلق فيها مواقع وطنية للنضال ، وأن تسعى حثيثا فى سبيل تعزيز هذه المواقع فى جبهات الثقافة والفكر والاجتماع ، فهيأت بذلك السلاح الفعال ، والضروري لاجبار سلطات الاحتلال على الرحيل من هذه الارض المحتلة .

ومما حققته هذه الحركة السلفية التجديد فى اسلوب الوعظ والخطابة الدينية ، فأفادت اللغة العربية من هذا تنشيطا وتجديدا ، واندفعت النفوس توّاقة الى ما هو نقي صحيح يخاطب العقل وينسجم مع المنطق ليحل كل ذلك محل الخرافات والاوهام التي كان الوعاظ ، والخطباء يضللون بها عن قصد ، أو ربما عن غير ما قصد .

كذلك يذكر للسلفية فضل آخر ، هو من الخطورة بمكان عظيم ،

---

(١٧) المصدر السابق .

ذلك هو تجديد أساليب التعليم ، فأسست فى مدينتي فاس والرباط المراكز الانموذجية الاولى للمدارس القرآنية المجدّدة ، كما أسست مدارس حرة تقوم على تطبيق برامج عصرية متضمنة التعليم الديني • كذلك قامت بتجديد أساليب التدريس فى جامعة القرويين ، والمعاهد الدينية ، وطالبت بتنظيمها وتطعيمها بالعلوم العصرية المتطورة • وتوجت تلك المطالبة باصدار مرسوم ملكي بتنظيم القرويين وتقسيم التعليم فيها الى قسمين : قسم الآداب ، وقسم العلوم الدينية ، كما أحدث فرع نسائي للتعليم فى جامعة القرويين للحصول على شهادة العالمية تمشيا مع الروح الديني الاسلامي الذي لا يفرق بين الرجل والمرأة فى طلب العلم •

ان فرنسا التي كانت قد شجعت الطرقية فى عهد المقاومة المسلحة المغربية ، وكانت تجد فى أغلب المشايخ الطرقية تأييدا وعونا ، قلبت لهؤلاء ظهر المجن ، ولم يعد يهمها من أمرهم شيء بعد أن تمّ لها الاحتلال العسكري الكامل للمغرب سنة ١٩٣٤ ، ولم تبق (لها الاّ علاقة بعبد الحي الكتاني ، والحبيب الفيلالي ، اللذين لم يتأخرا عن بذل أي مجهود فى سبيل تأييدها ، ولكن حتى هذان لم تجد فيهما غناء حينما حلت الحرب العالمية الثانية ، فاضطرت الى أن تخلق من جديد مشايخ يستكتبون لها المتطوعين فى الجيش لتأييد حكومة (فيشي) ، فأسست طريقة دينية أسمتها (الطريقة العالية) نسبة الى شخص اسمه (عبدالعالي) أمدته بكل ما أراد من مال لبناء زاويتين كبيرتين فى كل من الرباط والدار البيضاء ، فما كان من السلفية الاّ أن تتصدى لهذا الاجراء واستطاعت أن تكشف الامر للشعب ، فأصدر الملك أوامره للمحكمة الشرعية فى الرباط لتنظر فى هذا الشأن ، فصدر القرار باقفال هذه الزاوية ، ثم أصدر الملك مرسوما يقضي بمنع تأسيس أية طريقة دينية جديدة بغير اذن مسبق منه ، وعدم جواز اعطاء هذا الاذن الاّ بشروط تدخل فى اطار ما اشترطه علماء هذه الحركة

السلفية . وقد أدى صدور هذا المرسوم سنة ١٩٤٦ الى قيام أزمة حادة بين المقيم العام الفرنسي ، والقصر الملكي[١٨] .

يتضح مما تقدم أن اساليب الاستعمار ، أي استعمار ، واحدة ، وان اختلفت اسماؤها وأشكالها ، فقد حلّت هذه الطرق الدينية التي اصطنعها الاستعمار الفرنسي ، أو أوجدها ، في المغرب العربي ، محل الشركات والمؤسسات التجارية التي انشأها الاستعمار البريطاني في المشرق العربي ، في هذه الفترة التاريخية ، للاغراض الاستعمارية نفسها .

الجانب الفكري والثقافي في تاريخ المغرب :

الحديث عن هذا الجانب في المغرب لا يختلف كثيرا عنه في أي بلد آخر من بلاد العروبة ، في الخطوط العامة مع اختلافات بسيطة في بعض الجزئيات .

يؤكد الباحثون ان المغرب قد بقي ، والى عهد قريب جدا ، معزولا عن العالم شرقيه وغربيّه ، بكل ما فيه من تيارات التجدد الفكرية والثقافية خلافا لما رأيناه في الاقطار الشرقية من العالم العربي ، فعزلة المغرب هذه قد بدأت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين ، قبيل الحرب العالمية الاولى ، وكان مظهر عزلته عن الشرق غيابه عن المشاركة في التحرك لمقاومة الحكم العثماني الذي كان يبسط نفوذه على هذا الجناح من العروبة ، وقد زاد هذه العزلة استحواذ فرنسا على الجزائر سنة ١٨٣٠ ، وكان من الطبيعي ان لا يبقى المغرب بنجوة من الاستعمار الفرنسي ، وفعلا بدأت فرنسا بالاغارة على هذا البلد ، واشتبكت مع قواته في معركة ايسلي سنة ١٢٦٠هـ/١٨٤٤م وكان ذلك بدء السياسة العدوانية لفرنسا ضد المغرب ، كما ان اسبانيا أعلنت هي الاخرى الحرب على المغرب سنة

---

(١٨) المصدر السابق .

١٨٦٠/١٢٧٦ هـ واحتلت تطوان ... وتتابعت الأحداث في المغرب سريعة حتى انتهى الامر بارغام المغرب على توقيع معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢ .

وموقف المغاربة من هذا الاحتلال ، كان موقف الشعب الجريح الذي لم يتخاذل فنشط مناضلا ، مجاهدا قوى الشر التي تكالبت عليه من كل جانب ، فضرب أمثلة بطولية رائعة في سبيل ارجاع المغرب الى عروبته واسلامه ، ولا يزال يجاهد في سبيل تنقية مسيرته من تركات الماضي الثقيلة منذ أن انتزع استقلاله سنة ١٩٥٦[١٩] .

هذا هو الماضي القريب الذي عاشه المغرب قبل الاستقلال ، أما فيما بعده وهي فترة قصيرة فأن محاولة رصد الحياة الفكرية والثقافية بصورة دقيقة قد يكون امرا شائكا ، بسبب قصر الفترة هذه ، ولكن مع هذا قامت محاولات نقدية لواقع الفكر والثقافة في المغرب ، وقد تجاذبها نوعان من الاتجاهات : الاول ـ اتجاه واقع تحت وطأة التشاؤم ، لا يتعدى حدوده الضيقة ، ولا يتجاوز سلبياته ، والآخر يمكن أن يدعى بالاتجاه الواقعي الايجابي . فهو يعتمد النظرة الموضوعية منطلقا ، والايجابية هدفا .

ان هذه الاقلام قد اتخذت من الصحافة اليومية والمجلات الدورية مجالا ، ومن المنتديات الثقافية وسطا ومنبرا ، فقد تعالت صيحات المثقفين في أوائل الستينات تشكو سلبية الواقع الفكري ، متبرمة ، وتدعو بحماس كبير الى ضرورة تنشيط هذا الواقع ، والارتفاع به الى مستوى مسؤوليته في هذا العصر . وأخذ هؤلاء المثقفون ، على تعدد مناهلهم الثقافية ومختلف منازعهم الفكرية يلحون على ضرورة تحقيق رابطة ثقافية وخلق تواصل فكري يساعد على انتشال واقعهم الحضاري من وهدة التخبط في متاهات الضياع التي وجد

---

(١٩) انظر عبدالله كنون ـ احاديث عن الادب المغربي الحديث . طبعة معهد الدراسات العربية العالية ـ القاهرة سنة ١٩٦٤ ص ٩ـ١٨ .

المغاربة أنفسهم فيها بعد أن أعادوا لبلدهم استقلاله • ومحاولة شحن هذا الواقع بعناصر الحياة باعادته الى اصالته العربية على الرغم من كل ما عاناه وكابده من سلبية الظروف الخانقة التي ألمت بهذا القطر • وكان من أبرزها محاربة الذات العربية فى أقدس سر من أسرار وجودها : فكرها ووجدانها ••• لكي يتسنى لهذا القطر الحضور فى معركة التحدي المصيري ، بواقع فكري ايجابي معطاء يلبي حاجات المجتمع ، ويحقق تطلعاته •••

ان الازمة الفكرية التي عاناها المغرب قرابة نصف قرن ، حين فرضت عليه الحماية الفرنسية ، أزمة وليست كبقية الازمات ، فقد لايكون من الممكن لدى الكثير منّا تصوّر صنوف العسف والكبت التي مارستها تلك السلطات المحتلة في مجالي الفكر والثقافة ، ويحدثنا اخواننا المغاربة من الادباء والمثقفين كيف ان القصيدة العصماء التي تدفع للنشر ، كان يتسرب اليها سرطان الرقيب الغريب ، فيحيلها أشلاء مبعثرة ، أبياتاً مبتورة في الصدور والاعجاز ، امعانا فى التشويه والاستخفاف ، وكيف ان الكلمة الخيّرة بما فيها من جمال ومسؤولية كانت تخنق ، لا تجد لها طريقا الاّ الى سلال المهملات • أما أصحاب الكلمة من ادباء ومفكرين • فلا حاجة الى القول بأنهم كانوا مطاردين مضطهدين ، أو فى ظلمات السجون والمعتقلات •

كل ذلك كان يجري يوميا ، فى المغرب المحتل ، وكان ذلك كافيا ، تماماً ، لان يشل العصب الفكري ، ويعزله عن أسباب الحياة ومقوماتها •

الاتجاهات الفكرية بين الليبرالية والالتزام :

في الستينات ، خلال وجودي فى المغرب شهدت مناقشات جادّة راجت فى الوسط الثقافي حول الاتجاهات الفكرية التي تنعكس فى النشاط الثقافي العام ، وقد تناولت هذه المناقشات أخطر مسألة ، هي قضية الحرية فى التفكير والتعبير ، وتحديد موقع المثقف المغربي من نظام الحكم ، كما

نوقشت قضية الموقف الذي يتعين على المثقف أن يعرب عنه ، ويلتزمه فى نشاطاته الفكرية .

تناولوا الاتجاه الليبرالي الذي يتأثره بعض الادباء والمثقفين ، وكان من السهل أن تشخص ، وبكل دقة ، الملابسات التي ترافق مفهوم الحرية فى الاتجاه الليبرالي فى هذه المرحلة من حياة المغرب ، وقد نادوا بضرورة الكشف عن الاخطار العظيمة التي تكمن فى اشاعة هذا الاتجاه اللامسؤول ، ولفت انتباه الرأي الثقافي العام الى خطورة ذلك على كيان المجتمع الذي خرج تواً من استعمار عنيد غاشم ، وهو فى أشد حالات التمزق ، والتخلف ، فهذا الاتجاه ذو بعدين : بعد يفتح الباب للاعراب عن الآراء ، اتفقت أم لم تتفق مع الشعور المتصاعد بضرورة التحرك لاعادة بناء المجتمع على أسس جديدة . وبعد آخر ، هو افساح المجال للتزييف بالاعتراف بمشروعية الانسلاخ عن الحس الجماعي ، والواجب القومي ، ويكاد يكون هذا هو المقصود من تشجيع هذا الاتجاه واشاعته توصلا الى ابقاء هذا البلد مكبلا بأغلال الماضى القريب(٢٠)

ان مفهوم الليبرالية البراق عاد مسألة مرفوضة من الاساس لدى جماهير كل دول العالم الثالث ، ولا أشك فى أن هذا الاتجاه النابع من مصادر غريبة يقحم فى بعض المجتمعات بتخطيط هذه المصادر وفعلها وتبقى تدعمها وتوجهها وفق مصالحها وأغراضها مستخدمة شتى الوسائل ، ومن أبرزها التطبيقات المضللة لهذا المفهوم فى مجتمعاتها ، المختلفة اصلا عن هذه المجتمعات تحقيقا لاهداف لا انسانية فى ابقاء الهيمنة الفكرية والثقافية على تلك المجتمعات كدعامة أساسية للاستعمار الاقتصادي والسياسي للشعوب .

ان المرحلة التي يمكن للمغرب أن يحقق فيها بناء أرضية ثقافية صلبة

---

(٢٠) جريدة « العلم » المغربية عدد ١٠٩١ الصادر فى ١٩ نوفمبر ١٩٦٣ ص ٦ .

على أساس قومي انساني كلما تحن بعد ، وهو أمر طبيعي ، فأن بلوغ ذلك يشترط زمنا لا يتناسب والسنوات القليلة التي تمثل عمر المغرب المستقل ، لذا فان كل اتجاه لا ينبع من الشعور الواعي بالمسؤولية يشكل معوقات خطيرة ، بل يكون عملية تخريبية للمقومات الاساسية لهذا البلد . ان هذه القاعدة الصلبة للثقافة المغربية هي ما يمكن أن ندعوه بالضمير الفكري العام أو الوجدان الثقافي القومي الذي يعكس خلاصة الشخصية الفكرية ويمنحها أبعادها القومية كمنطلقات ، والانسانية كأهداف ، وهي قاعدة النضال الفكري الذي يخوضه مغرب اليوم فى سبيل تأكيد استقلاله وكرامته الانسانية .

ان محاولة تصنيف النتاجات التي تتحرك ضمن اطار النشاط الفكري فى المغرب ، بصورة دقيقة ما زالت عملية معقدة ، ان لم نقل غير عملية ذلك لان تشخيص الاتجاهات الفكرية لا يتم الا بعد بلوغها مرحلة التبلور والنضوج الواضحين ، وهذا أمر ما زال غائبا عن معظم تلك النتاجات اذا استثنينا النتاجات القليلة لنفر من المغاربة الذين انطلقوا من مواقع وطنية معروفة ، ولا يزالون يتحملون مسؤوليات قيادية فى مجال الفكر ، وهذه الاقلام القليلة لا تغير من حقيقة ما قلناه اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ضخامة الموجات المتدافعة فى نشاط الاجيال الصاعدة ونزوعاتهم الفكرية وسط الصراع الرهيب الذي يحمله العصر الراهن ويلف مجتمعات العالم قاطبة .

لذا أراني لا أتفق وبعض النقاد المغاربة اذ يجعل الثقافة المغربية كلها تصب فى الفكر البرجوازي ، بتصنيف البورجوازية الى ثلاثة منطلقات : البرجوازية المحافظة ، التي هي اصلاحية لا تطمح الى أكثر من الترميم ، وبرجوازية تستلهم ماركس فى منطلقاتها ، فتنظر الى القضايا المطروحة فى الداخل فى اطار مشاكل العالم الذى يرتبط به المغرب وجدانيا واستراتيجيا . وبرجوازية ثالثة ، انتهازية لا يمكن لافرادها أن يفكروا فى غير استكمال

الاطار المادي الذي تتطلع اليه كل برجوازية شرهة فى النشوء[٢١] .

ان الدافع الرئيس الذي كان وراء هذا التقسيم الحدي للثقافة المغربية ومنطلقاتها كان دافعا نبيلا ، فهو نتيجة رصد للواقع ، واستيحاء مباشر لعناصره وأبعاده ، وهو ، من جهة اخرى ، استيعاب واع لظروف المرحلة التاريخية التي يمر بها المغرب ، تلك المرحلة التي لا يمكن رصد معطياتها بمعزل عن ظروف المرحلة التي سبقتها ، وهو ، ايضا ، نقد يستهدف القضايا الوطنية فى اطارها القومي الانساني ، الا ان مما تجدر الاشارة اليه هنا اننا نلمح ان لهذا النقد منطلقا سياسيا بصورة رئيسة ، فقد بنيت هذه التقسيمات على أساس المردود المباشر الذي ينبغي أن تحققه النشاطات الفكرية بالنسبة للفرد المغربي ، فى اطار محدد ، هو السياسة . ولا غرابة فى هذا ، فأن ارتحال الاستعمار الفرنسي عن أرض المغرب سنة ١٩٥٦ كان يشكل تحولا سياسيا عميقا ، الامر الذي قد صيّر « السياسة » قضية مطروحة بالضرورة أمام أنظار الجماهير الشعبية ، وهذه القضية تتصل اتصالا مباشرا بحياته اليومية بكل تفصيلاتها مما جعلها ، وبصورة تلقائية ، تستقطب اهتمامات المواطنين ، تلك الاهتمامات التي انبرى هؤلاء النقاد لتشخيصها والدفاع عنها بهذا الاسلوب .

ان الذي يتصدى لدراسة الحركة الادبية فى المغرب يرى تعددا فى الاتجاهات ، ولا أقول « فى المذاهب » ، وتعدّد هذه الاتجاهات ، كما هو معلوم ، هو نتيجة طبيعية للمرحلة التي يعيشها هذا القطر فى الوقت الراهن . وهي مرحلة مخاض فكري تعقب خروج كل شعب من الشعوب التي كانت مقهورة ، من صراع سياسي مرير بين هذه الشعوب المغلوبة ، وبين الوجود الاجنبي فى أراضيها بكل ما يخلفه ذلك الوجود من تركات ثقيلة أهمها الصراع الحاد بين التيارات الثقافية الوافدة ، والثقافة القومية . وهذا الصراع

---

(٢١) المصدر السابق نفسه .

لا يكون متكافئاً ، ولا متواجدا فى ظروف طبيعية ، انما هو صراع يفرضه القوي على الضعيف بكل ما يبيّته القوي لذلك الضعيف من نوايا التمزيق والسيطرة .

وحين يصل المغرب ، الى مرحلة الانتقائية الفكرية ، التي تتبلور فيها الاتجاهات بصورة واضحة نستطيع أن نرصد مجمل الحركة الفكرية ونحلل عناصرها ونصنف منطلقاتها وتطلعاتها برؤية واضحة وتقويم سليم ، ولا أظن انه سوف يمر وقت طويل قبل أن يتحقق ذلك ، فأن فى صفوف الادباء المغاربة الآن أمثلة حية تبشر بكل خير .

وأرى مفيدا في هذا المجال أن نعرض للحركة الادبية فى المغرب ونشخص بعض مقوماتها ومنطلقاتها من خلال ما يراه أحد روادها في هذا القطر .

لقد كان للصحافة المغربية أثر كبير فى النهضة الفكرية من خلال تسجيلها للحركة الادبية ، واحتضانها لعطاء ثرّ من النبضات الفكرية والدفقات الثقافية الحارة التي اتصف بها المثقف العربي فى هذا القطر سواء كان ذلك فى فترة صراعه مع الاستعمار ، أو فى هذه الفترة القليلة التي أعقبت خروج المستعمرين من هذه البلاد ، فقد أطل هذا النشاط الفكري وهو ، كما يقول الاستاذ عبدالله كنون : « من الغنى والتنوع بحيث يمكن القول انه استتم العناصر الاولية للادب الحي ، وانه شق الطريق للحاق بقافلة البعث الادبي فى العالم العربي ، ففي النشر زيادة على نمو المقالة السياسية والاجتماعية والادبية ظهرت البحوث المنوعة فى الفلسفة والفن والنقد ، وبلغت الخطابة السياسية أوج الكمال ، وبدأت المحاولات الناجحة فى كتابة الرواية التمثيلية والاقصوصة والقصة ، وذلك فضلا عن نشاط حركة التأليف فى الموضوعات السياسية والتأريخية والعلمية .

« وفى الشعر استفحل النظم فى موضوع الوطنية تبعا لاستفحال

حركتها ، فكاد الشعر كله يكون ثورة على الاستعمار ودعوة الى مقاومة النفوذ الاجنبي وتذكير الشعب بمجده وتاريخه العظيمين ، وتحول الشعر العاطفي من تفاهة العبارات الجوفاء الى تجارب ذاتية وانسانية صادقة ، وجال الشعراء في ميدان الطبيعة ، وحلقوا في مجال الفكر ، وظهر الشعر التمثيلي في مسرحيات صغيرة تعتبر كنواة لهذا اللون الجديد في الشعر العربي ، الى غير ذلك من مظاهر التفنن والابداع التي أكسبت الادب المغربي منثوره ومنظومه بسطة في الشكل والمضمون لم يعرفها من قبل . وهكذا لم يبق الادب فنا مسخرا لخدمة الرؤساء والملوك ولا تزجية للوقت عند من لم ينزل بأدبه الى مستوى الشعراء المداحين والكتاب المتكسبين ، بل صار دعوة ومذهبا ، وفنا رفيعا تتمثل فيه الحياة الانسانية بأهوائها ومطامحها ، والكون بجماله ونظامه ، وأصبح الاديب صاحب رسالة سامية ومكانة مرموقة في المجتمع بصفته أحد قادة الفكر ، ورائدا من رواد الاحياء والتجديد .

« ولا نعني ان الادب المغربي بلغ كماله ، ولا ان الاديب المغربي أدى مهمته كاملة ، وانما نعني انهما اصبحا على الطريق ، وصارا على ميعاد مع قافلة الادب والادباء في الشرق العربي ، أي ان المغرب طوى مراحل التخلف التي كانت قعدت به عن اللحاق بركب النهضة العربية في أول هذا القول ، ولم يبق مع الخالفين »[٢٢] .

كان هذا شأن الادب العربي في المغرب ، اما عن منطلقاته القومية فيمضي الاستاذ كنون محدثا بقوله :

« ومن الخطأ ان تميزّ عمل اى بلد عربي في هذا الصدد ، سواء كان سابقا اولا حقا ، لان طابع العروبة لايوجد الا حيث تلتقى جهود العرب

---

(٢٢) انظر : عبدالله كنون ـ احاديث عن الادب المغربى الحديث ـ نشر معهد الدراسات العربية العالية : القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٠ـ٨١ .

كافة • ولم يتحقق للنظرية الاقليمية فى الادب العربى مدلول خارجى ، برغم ما قيل فى توجيهها والتنويه بآثارها •

الى ان يقول :

« ان الادب العربى وحدة لاتتجزأ ، وان ما يجدّ فيه من مذاهب واتجاهات هى فى نظرنا وليدة تفاعل افكار الادباء العرب ، والتيارات الفكرية الحديثة التى طرأت على الادب العربى بوساطة الترجمة عن الآداب العالمية والاطلاع على الثقافات الاجنبية المختلفة ، وليس شىء منها متولدا عن طبيعة الاقليم والسكان وخصائص الجنس والوراثة كما يحلو لبعضهم ان يعلل ذلك ، ولا نستدل الا بان أي مذهب او اتجاه ظهر فى بلد من بلادالعرب ، لا يلبث أن يتردد صداه في بقية البلاد ، وينمو ويزدهر على يد أبناء العرب كلهم • كان الامر فيما مضى حين كانت طريقة المتنبى التى ظهرت فى المشرق تجد من أبى القاسم بن هانيء راعيا لها فى الاندلس حتى سمى بمتنبى المغرب ، وكان البحترى يتمثل فى ابن زيدون • والمعرى وابن شهيد يكادان يردان من نبع واحد : هذا فى رسالة التوابع والزوابع ، وذاك فى رسالة الغفران • ولما ظهر التوشيح فى بلاد المغرب وراجت سوقه بين الادباء المغاربة ، لم يلبث ادباء المشرق ان اقبلوا عليه واهتبلوا به حتى الفوا فيه الكتب الخاصة• وكذلك كان الامر في العصر الحاضر ، فما ان ظهر بعد الحرب العالمية الاولى ما يسمى بالادب المهجرى من انتاج الادباء اللبنانيين والسوريين المستوطنين فى الامريكتين حتى انتشر فى العالم العربي وتعاطاه الادباء هنا وهناك • وفي فجر ظهوره وانتشار آثار اعلامه كجبران خليل جبران ، وامين الريحانى ، وميخائيل نعيمة ، كان عندنا فى طنجة محمد الحداد يكتب بذلك الاسلوب ، ويضرب على تلك النغمة ، حتى لتحسبه احد رواد ذلك المذهب »(٢٣) •

---

(٢٣) انظر المصدر السابق ص ٨٣ـ٨٤ •

واقـع الثقافة المغربية :

الذى يدرس تاريخ المغرب الثقافى تطالعه صفحات مشرقة من التراث العظيم فى مبادىء الفنون والعلوم والآداب[٢٤] .

اما النقد الذى يوجه اليوم الى واقع الثقافة المغربية فانه ينسحب على المؤسسات الثقافية ، والمثقفين على حد سواء . قالوا : ان القرويين وهى جامعة أسست منذ أكثر من أحد عشر قرنا[٢٥] كان لها فعلا دور تاريخى كبير فى مجال الثقافة ، الا ان هذه الجامعة لم تصب تطورا ، بقيت تقليدية يسيطر عليها الجمود بسبب الظروف التى احاطت بها ، والمعوقات التى خلقت فى سبيل تطورها ، وبالتالى كان طبيعيا ان تصبح عاجزة عن القيام بدورها الايجابى فى الحياة الفكرية والثقافية فى العصر الراهن .

والحقيقة ان هذه الجامعة وان كانت قد واجهت محنا قاسية ، وعانت اضطهادا شديدا من قبل السلطات الفرنسية مما ادى الى ان تتخلف نسبيا عن مواصلة سيرها فى طريق التطور ، واداء رسالتها كما ينبغى ، الا ان كل هذه الظروف لم تقو على القضاء على هذه المؤسسة وعزلها عن الحياة وذلك بسبب ان مقوماتها كانت اقوى من كل اساليب الحرب البشعة التى شنت عليها بأعتبارها اكبر معقل من معاقل الفكر ، والحرية فى هذا البلد .

انطلقت هذه الجامعة انطلاقة تاريخية كبرى . امدت المغرب العربى بدفقات من العلم والثقافة اضافت الى الفكر الانسانى اضافات خصبة ، واستمرت تؤدى رسالتها حتى اوائل القرن العشرين حين فرض نظام الحماية على المغرب ، وكان ذلك ايذانا بدخول المغرب مرحلة تاريخية

---

(٢٤) انظر : محمد المنونى : « العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين » . نشر معهد مولاى الحسن في المغرب . فأن فيه اشارات مركزة الى ما ذهبنا اليه .

(٢٥) اسست جامعة القرويين سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

خاصة جدا اتسمت بمحاربة المؤسسات الثقافية الوطنية ، وتشويه الشخصية المغربية الاصلية عن طريق محاربة هذه المؤسسات .

ان تاريخ جامعة القرويين مشرف ؛ فقد صارعت الاستعمار الفرنسى وقاومت اخطاره الكبرى فى محو اللغة العربية واحلال الفرنسية محلها ، وتشويه الاسلام ، وتمزيق وحدة الشعب عن طريق دعوات الادماج والتجزئة . ولعل شيئا من عظمتها يكمن فى طبيعة انشائها ، فقد انشأتها امرأة من صميم الشعب هى ام البنين القروية ، فاطمة بنت محمد الفهري، وانفقت على انشائها من مالها الخاص ، وظلت صائمة منذ شرعت فى بنائها الى ان تم البناء كما يروى .

« واذا كانت جامعة القرويين قد حفظت تراث العربية والاسلام فى العصور الوسطى وتلقت الامانة من الاندلس ، ثم لم تلبث ان ردتها للحضارة الانسانية قوية مزيدة ، فانها قد قامت برسالة اشد ضخامة دعتها عندما اصطدمت بالاستعمار ، ولم تمكنه من اغلاق ابوابها ، ووقفت تحطم أهدافه واحدا بعد آخر ، وتحمي التراث وتشارك فى المقاومة والدفاع عن الحرية مقاومة ايجابية على اساس من الفهم الصحيح للاسلام والايمان العميق برسالة الفكر ، وهى اليوم تصنع عملا آخر أشد عظمة وجلالا ، وهو حماية شخصيتنا من أن يكون للفكر الغربي الاثر الذي يطغى عليها ، أو يغير ملامحها ، وهى حين تفتح الباب امام الثقافات الغربية انما تستفيد بها قوة لشخصيتنا دون ان تذوب فيها ، او تحوّل شيئاً من معالم الصورة العربية الاسلامية لكياننا الحى القوي النامى . »(٢٦)

---

(٢٦) انظر : « أثر القرويين فى حماية اللغة العربية » ـ بحث للاستاذ انور الجندى . نشر فى الكتاب الذهبى عن جامعة القرويين باسم : « جامعة القرويين فى ذكراها المائة بعد الالف » الذى اصدرته وزارة التربية المغربية بعد المهرجان الذى اقيم بمناسبة مرور احد عشر قرنا على انشاء هذه الجامعة بفاس ، وذلك عام ١٩٦٠ (ص ٢١٢ ـ ٢١٣) .

هذا هو الدور التاريخي العظيم الذى لعبته جامعة القرويين وخريجوها خلال الحماية الفرنسية • اما بعد هذه الفترة ، أى حين دخل المغرب مرحلة البناء من جديد ، فقد كانت هذه الجامعة من جملة ما شملته حركة اعادة هذا البناء ، فصير الى اعادة النظر فى برامجها وطرق التدريس فيها انسجاما مع مقتضيات التطور •

اما ما يتعلق بالمثقفين ، فان قسما كبيرا منهم كانوا فى الحقيقة قد نهلوا من معاهد الغرب ، وعادوا الى وطنهم غير متمثلين لهذه الثقافة الاجنبية بالدرجة التى تمنحها بعدا وطنيا قوميا يمكن ان نلمس آثاره الايجابية فى اتجاهاتهم الثقافية ، لذا برز فى الوسط الثقافى عدد من هؤلاء المغتربين ثقافيا ، الذين يعدون انصاف مثقفين قد يكون خطرهم على الثقافة الوطنية أوضح من تأثيرهم الايجابى الضئيل فى انعاش الواقع الثقافى فى البلد • وهذا ، مرة اخرى نقولها ، ناجم عن الظروف التي مر بها المغرب وهو يرزح تحت الحماية الفرنسية • الا ان من الضرورى الاشارة الى تيار الثقافة العربية المتصاعد ، الذي كانت المدارس الوطنية الحرة قبل الاستقلال منبعا له ، وقد تمكن قسم من خريجى هذه المدارس والمعاهد الوطنية ان يكملوا تعليمهم فى الجامعات المشرقية ، كما ان الحماية الفرنسية نفسها كانت قد ارسلت بعض المثقفين من خريجى جامعة القرويين الى فرنسا ، وذلك لتحويل تفكيرهم وجهة فرنسا فيكونوا دعاة التغريب ولكن قوة مبادىء القرويين حالت دون انحراف هؤلاء الشباب ، فعندما عادت هذه المجموعة لم تلبث أن وجدت طريقها الصحيح مع مبادئها وأهداف الامة ، وما تزال حتى الان من اقوى العاملين فى حركات التعريب ، وهذه الطليعة تقع عليها فى الحقيقة مسؤولية ثقافية عظيمة الاهمية ، عليها ان تتحمل رسالة التقريب والمزج المتكافىء الواعي للتيارات الثقافية الاجنبية والوطنية فى سبيل ارساء الحياة الثقافية على قواعد ايجابية تضمن الشخصية المغربية

العربية ، فوجهة الثقافة المغربية ، كما سبق أن بينا ، لم تبلغ بعد مرحلة التبلور ، ولمّا تتحدد معالمها الاصيلة بعد • والعناصر الحية التى تمثل ثقافة البلد تعاني انكماشا وشعورا بالهامشية قد تكون لهما آثار خطيرة فى الاتجاه القومى ، اذ ان ذلك يعمل على خلق الجيوب الثقافية المتناقضة ، واضفاء صبغة الاهمية والتفوق على الاجنبى منها ، لاعتبارات سياسية لم يتحرر القطاع الثقافي منها ، او من ترسباتها بعد ، وادى ذلك ، وهذا مؤسف حقا ، الى انزواء المثقف العربى في هذا البلد الاصيل فى عروبته ، وغيابه عن مسرح الحياة • وسلبيته الحادة هذه افضت الى مضاعفات نفسية لها ابلغ الاثر على كيان الفرد والمجموع على حد سواء •

يصرّح احد المثقفين المغاربة بأن « المثقف العربي يخفي صوت ثقافته العربية على استحياء ، مخافة ان يتهم بجهل الثقافة والحضارة • ونجد المثقف ثقافة غير عربية عاجزا عن المضي بثقافته فى المستوى الذى رآه فى البلاد التى تثقف فيها ، فيخفي صوت ثقافته عن تواضع ، أو عن غرور ، وهو فى كلتا الحالتين عاجز عن المساهمة فى دفع الثقافة المغربية المشتركة الى وجهة معينة وسبيل واضحة » •(٢٧)

وقد يكون من المفيد هنا الاشارة الى المشكلة الخطيرة التى تعترض سبيل الثقافة العربية ، كما يراها أغلب المثقفين المغاربة ، الا وهى مشكلة اللغة ، فالمرحلة الانتقالية التى يجتازها المغرب الآن ، والخلفية التاريخية لثقافة المغرب فرضت ان يكون التعليم والتثقيف بغير العربية ، وهذه الاداة غير العربية ، مع ما يرافقها من اعتبارات خاصة ، تشكل عوامل خطيرة فى تعميق الاضطراب واشاعة البلبلة فى اوساط الجيل ، وتلك امور يضيع معها ، وبالضرورة ، الطريق الواضح للثقافة والفكر فى المغرب •

---

(٢٧) انظر : مجلة « دعوة الحق » ـ العدد الثالث ـ السنة الخامسة (ديسمبر ١٩٦١ ص ٥٢) •

وقد كانت اللغة العربية من الموضوعات التى نالت اهتماما كبيرا من قبل الاثقفين ، وهم يعالجون الشؤون الفكرية فى هذا البلد ، معتبرين الحضارة ، بمدلولها الواسع ، اشعاعات للثقافة تعود فى شكلها الخارجى الى لغة • والثقافة لاية حضارة انما هى عبارة عن نهل مستمر من شلالين اثنين هما : التراث والابتكار • وكان هذا هو المنطلق الايديولاجى للوطنيين المغاربة فى غيرتهم على اللغة القومية باعتبارها الاداة الاصيلة للحاق بركب الحضارة البشرية ، والعامل الفعال لصيانة الوحدة الوطنية بعد الاستقلال السياسي • وبذلك عمل هؤلاء على نقل هذه القضية القومية من نطاقها الخاص الى مدلولات انسانية ارحب ، عبر هذا التبرير الذهني المقبول •

ومما يدعو الى التفاؤل ان جهودا ضخمة قد وجهت فى سبيل السياسة العامة ومنذ بداية الستينات حتى الآن للانعاش الثقافى فى المدرسة والجامعة ، فضلا عن الخطوات الاخرى التى تحققت فى مجالات الادارة والقضاء ، واجهزة الدولة الاخرى •

مشاكل فى طريق الفكر المغربى :

من الواضح جدا فى تاريخ الشعوب ان الغزو العسكرى الذى يقوم به بلد لبلد آخر ، يرافقه بالضرورة غزو فكرى وثقافى • وان حيوية الشعب الذى يغزى واصالته يتجليان فى استعدادات ذلك الشعب الذاتية لمقاومة ذلك الغزو فى واجهته الفكرية ، والارهاص للحركات الوطنية فى سبيل التحرر والانعتاق •

وفى تاريخ المغرب رأينا ان الثقافة العربية كانت الدعامة القوية التى اصطدمت بها اوربا فى غزوها للشعب المغربي • ان تيار الكفاح والمقاومة الوطنية فى المغرب كان قد اتخذ الثقافة العربية وسيلة للدفاع عن الذات ، والاحتماء من فظائع المسخ والتشويه ، مما أدى الى أن تكون معطيات هذه الفترة مجرد اهتمامات رمزية فوقانية فى المجال الفكرى انعدمت فيها صور

التطوير والابداع لتعميق الفكر العربى وجودا واتجاها ، فلم يكن الانتاج الفكري في فترة الحماية هذه فى مستوى التعبير عن قضية الشعب المقهور ، بل كانت انتاجا ذا طابع محدود الامد لايستطيع ان يطل على آفاق جديدة تستوعب طموحات هذا الشعب وتطلعاته ، ويتجاوز فكرة الاستعمار الى ما بعده • هذه وجهة نظر الناقد المغربي[٢٨] • والحقيقة هى ان مرحلة الحماية تميزت فيها فترتان : الاولى منذ الاحتلال سنة ١٩١٢ حتى نهاية الحرب الريفية سنة ١٩٢٦ ، والثانية من الحرب الريفية حتى اعلان الاستقلال سنة ١٩٥٦ • الفترة الاولى كانت امتدادا للفترة التى سبقتها ، تميزت بانتاج ادبي طبع بالروح الانهزامى والاستسلام للحياة ، والاتجاه للكتابات التاريخية للمدن والملوك والآثار ، والتهافت على الكتابة فى الوزارات ومكاتب الدولة المختلفة • وهذا النوع من الكتابات خلو من كل ابداع واجادة ، فهو اجترار ، وجمود على قوالب وشكليات تقليدية • كما كان فى هذه الفترة ادباء رسميون يمدحون ويهنئون فى المناسبات الى جانب ادباء آخرين تميز انتاجهم بالطابع الشخصي الذى كان يمثل جوانب الحياة المختلفة فى نطاق شخصاني ، فهناك الماجن الخليع ، والمنغمس فى شهواته الحسية ، والتقي الفار من رجس الحياة المادية ، والصوفى الذى يسبح فى وجدانياته وتهويماته •

اما الفترة الثانية من عهد الحماية ، فقد عرفت نهضة ادبية تمثلت بعدد من المجلات والصحف التى ظهرت فى شمال المغرب وجنوبه زاخرة بانتاج ادبي طموح ، فيه روح قومى وثاب ، وتحفز الى الاصلاح والبناء[٢٩] •

أما كون فترة الحماية بمجملها قد فرضت نوعا من النتاج الفكرى الذى

---

(٢٨) انظر : المصدر السابق •

(٢٩) من هذه المجلات والصحف : السلام ، المغرب الجديد ، الثقافة المغربية ، مجلة المغرب ، رسالة المغرب ، والملحقات الثقافية لجريدة المغرب •

تحرك على صعيد الاهتمامات الرمزية الفوقانية فى نظر الناقد المغربي المعاصر، فانه امر يكاد يكون طبيعيا من ناحية ، كما ان له دورا ايجابيا فى مجمل الحركة النضالية التي شهدها المغرب في سبيل التحرر من الاستعمار من ناحية اخرى.

اما فترة الاستقلال فقد وصفت بانها تشكل فراغا فكريا بدا شبحا مخيفا ضجّ اخواننا المغاربة بالشكوى منه فى مناسبات كثيرة . ولعل اهم سبب في احداث هذا الفراغ هو أن الوضع الجديد الذى أصبح عليه المغرب المستقل ، امتص الكثير من الطاقات الفكرية بشغل المناصب الادارية والسياسية التى خلت بانسحاب العناصر الاجنبية منها ، وكان ذلك على حساب النهضة الفكرية ، يضاف الى ذلك ضعف الاقبال العام على شؤون الفكر والثقافة ، وضعف التجاوب او انعدامه ، احيانا ، بين القراء والمنتجين ، وكذلك تفشي الامية ، وميل القرآء الى استهلاك النتاجات الخفيفة وقد وصف الكتاب المغاربة هذه الظاهرة بانها مرض اجتماعي خطير تشكل الدعوة الى معالجته ضرورة وطنية ملحة .

اما الجامعة المغربية ، فهى مؤسسة اصبح لها وجود فعلى بعد الاستقلال وهى اليوم تتحمل قسطا كبيرا من المسؤولية فى المشكلة الفكرية ، الا ان اشعاعها الفكرى والثقافى لايزال محدودا ، والدعوة قائمة الآن الى تعضيدها وامداها باسباب القوة والنماء ، وتوفير الصلة بينها وبين الظروف العامة التى يمر بها القطر لخلق جو التفاعل الضرورى بينها وبين المجتمع تمكينا لها من اداء رسالتها .

ويرى بعضهم أن من بين المظاهر الاخرى للانعكاسات السلبية على واقع الحياة الفكرية والانتاجية فى المغرب « ضآلة الاقبال على الانتاج المستقل القائم على قاعدة النشاط الفردى الخاص ، فتنهار بذلك المشروعات الأدبية ويخفق الكثير من الهيئات والمنتديات الفكرية والثقافية فى اداء مهامها ، سواء من الناحية الفنية والتنظيمية ، او من الناحية الادبية

والانتاجية ، فادى ذلك بدوره الى تقلص مجال النشر والاشعاع الفكرى ، وانعدام النزوع الى التنويع فى صور التعبير عن الفكر فى المغرب ، فنرى تركز هذه الصور واستقطابها حول المقالة أو المقطوعة الشعرية ، أو القصة القصيرة ، على حظوظ مختلفة من الابداع والاصالة »(٣٠) .

ومن هموم الكتاب المغاربة التى يطرحونها فى هذا المجال الاستخفاف الذى تقابل به امور الثقافة ، مما يؤدى الى شل الطاقات الانتاجية وتجميدها بسبب قتل الواعز النفسى الذى يبث فيهم روح الحرص على استغلال هذه الطاقات فى الانتاج المتسم بالجودة والاصالة والعمق . ومما يعقد هذه المشكلة عدم وجود رقابة فكرية موجهة تتناول بالنقد والتوجيه أهم ما يتهيأ لـه النشر من آثار ادبية وعلمية ، الامر الذى يؤدى بالمنتجين الى توخى الاجادة والاصالة فيما ينتجون .

وهنا لابد من الاشارة الى ضرورة التخطيط التربوى للبلد ، الذى عليه ينبني تطوير اتجاهات الاجيال ، وتأصيل محصولها من الوعى الثقافى ، وتنمية الحوافز النفسية التلقائية التى تذكى فيهم الرغبة للتثقيف الذاتى .

اما ظاهرة « التأجنب » الثقافى والفكرى ، التى سبق ذكرها ، فان على المسؤولين الرسميين مسؤولية وطنية على جانب كبير من الاهمية فى اذابة هذه الظاهرة ، وذلك بالعمل المخلص الدؤوب على استدراج الرؤوس التى تتمثل فيها الى الخروج من المنعطفات الفكرية اللاقومية المظلمة ، الى رحاب قوميتها الواضحة ، الخيّرة ، ونشر الوعي الفكرى والثقافى فى اوساط الشعب ، وتوسيع نطاق الانتاج والاستهلاك فى مجال الثقافة . وعلى هذا المستوى ينتظر تعريب هؤلاء المغتربين فكرا واتجاها .

---

(٣٠) انظر : مجلة « دعوة الحق » ـ العدد الاول ـ السنة الخامسة (اكتوبر ١٩٦١) ص ٣٧ .

على ان هناك رسالة ضخمة تنتظر المثقفين انفسهم فى هذا البلد على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم ، هذه الرسالة هى العمل على صهر كل الالوان المتباينة والاتجاهات المتضاربة من الثقافات التى غزت المغرب ... صهر كل هذه الثقافات فى بوتقة فكر قومى انسانى متحرر ، ولا يؤدى ذلك الى انبعاث فكرى وثقافى وحسب ، بل يتضمن كذلك استمرار شخصية المغرب العربية الاصيلة ، وتأمين اسباب تطور وعيه الثقافى ، وتوسيع مجال تفاعله الايجابى مع التيارات الفكرية العالمية المعاصرة ، وتأكيد قدرته على الاسهام بنصيب اساس فى التعاون الانسانى العام من اجل مصير افضل ، ومثالية انسانية امثل(٣١) .

ولقد اصبح من الضرورات الملحة للمغرب بعد أن انتزع استقلاله السياسى بكفاحه ، أن يعيد لتفكيره أصالته فى المنهج ، ولاحساساته وسائلها الخاصة فى التعبير ، وبعبارة اخرى اصبح ضروريا للمغرب ان يعود الى لغته ، الام الرؤوم لتغمره بفيض من امومتها العبقرية ، وطفح من عطائها الروحي الخالد ، وتتلو له آيات بينات عن سر بقائه واستمرار وجوده رغما عن كل ما ابتلي به من شدائد ومحن قاساها فى تاريخه القريب ، وبذلك يتهيأ له مجال العودة للارتباط التام بمراحل تطور التفكير العربي مستشعرا ذاته العربية ، ومستلهما طبيعة تكوينها .

وهنا لابد من أن نسجل حقيقة ، هى ان المغرب يخوض اليوم معركة ضارية من اجل اقرار اللغة العربية ، واحلالها محلها التاريخى والطبيعى فى التعليم والتشريع والادارة . وقد اصبحت قضية التعريب من القضايا التى شغلت الصحافة والمجالس والمنتديات واجهزة الاعلام باعتبارها مشكلة ثقافية وقومية فى آن واحد ، وقد حقق فى هذا المجال انجازات لها اهميتها ، ولا يزال يسعى فى هذا السبيل ، نرجو له كل توفيق .

---

(٣١) انظر : المصدر السابق نفسه .

مراجع عامة للبحث غير التى وردت فى الهوامش

١ ـ تاريخ تطوان ـ تأليف محمد داود (٨) مجلدات ، طبع المغرب

٢ ـ المغرب عبر التاريخ (من عصر ما قبل التاريخ الى نهاية دولة الموحدين) ، تأليف : ابراهيم حركات ، طبع الدار البيضاء (المغرب) ٠

٣ ـ النظام السياسى والحربى فى عهد المرابطين ـ تأليف ابراهيم حركات طبع الدار البيضاء (المغرب) ٠

٤ ـ التشوف الى رجال التصوف لابن الزيات ، تحقيق ادولف فور ، طبع المغرب ٠

٥ ـ مفاهيم اسلامية ، تأليف : عبدالله كنون ، طبع بيروت ٠

٦ـ النبوغ المغربى فى الادب العربى ، تأليف : عبدالله كنون (٣ أجزاء) طبع بيروت ٠

٧ ـ « جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان » تحقيق الدكتور محمود علي مكى ، طبع تطوان (المغرب) ٠

٨ ـ وثبة المغرب ، تأليف : الدكتور عمر فروخ ، طبع بيروت ٠

٩ ـ دليل مؤرخ المغرب الاقصى (جزءآن) تأليف : عبدالسلام بن سودة٠ « طبع المغرب » ٠

١٠ـ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، لابى العباس أحمد ابن خالد الناصرى ، تحقيق ولديه جعفر ومحمد الناصريان ، طبع الدار البيضاء (المغرب) ٠